

الحجاج في خطبة ابن عاصم

صلاح عبد الله حسن أبو يحيى*

ملخص

لقد تناول هذا البحث الحديث عن كيفية توظيف ابن عاصم للحجاج في خطبته، ومن ثمَّ كيفية ارتكازه عليه بأشكاله ومعايير المتنوعة وقوانينه في تكوين هذا النصّ الخطابيّ باعتباره فنّ الإقناع. كما حاول توضيح نشأة مفهوم الحجاج. وكان ارتكاز الكاتب على الحجاج يعدُّ باعثاً مهماً في بثِّ أفكاره للمتلقى بصورة مقنعة، مما جعل هذا النصّ الخطابيّ أكثر قبولا لدى المتلقى هو كون اعتماد الكاتب على براهين مقنعة لديه من مثل: القرآن الكريم؛ فهو مرجعية ثقافية لا تحتمل التأويل، فهو يحمل درجة عالية من التصديق لديه. وكان الأسلوب الذي اتبعه ابن عاصم يعدُّ رافداً مهماً في تعزيز النصّ الحجاجيّ تعزيزاً قوياً، ولا سيما أنَّ هذا الأسلوب في نظر الباحث يشكلُ تأسيساً نظريّة حجاجيّة أسلوبية على مستوى عالٍ من الناحية الفنيّة في الكشف عن تكتنيات الأسلوب، ومنها المستخدمة في خطبة ابن عاصم. ولعلَّ ابن عاصم قد نجح في إيصال أفكاره ومبتغاه بشكل منطقي ومتدرج، وكان معتمداً في ذلك على المنطق العقلي في صياغة خطبته.

الكلمات الدالة: الحجاج، ابن عاصم، خطبة.

المقدمة

وقد وقف هذا البحث عند كيفية اعتماد ابن عاصم على التدرج المنطقيّ في حجاجه، كما بيّن آليته في السلم الحجاجيّ عند تقديمه للحجج وكذلك الحال بالنسبة للنتائج. أمّا المنهج الذي اتبعه الباحث في هذا البحث فهو المنهج الوصفيّ التحليلي، وذلك من خلال طرح القضايا الحجاجيّة في خطبة ابن عاصم، ومن ثمَّ الوقوف عليها وتحليلها.

أولاً- التعريف بابن عاصم⁽¹⁾:

هو محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم القيسيّ الغرناطيّ الأندلسيّ المالكيّ، أبو يحيى. وهو خطيب، ووزير، وكاتب، وشاعر مفلح ناثراً الحجة خاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق ومالك خدم البراعة بالاسترقاق. وكان أهل زمانه يسمونه ابن الخطيب الثاني. وتوفي في حدود سنة (ت 857هـ). وكان قاضي الجماعة بغرناطة. وكان من أكبر فقهاءها وعلمائها ورؤسائها.

وقد وصفه ابن فرج السبتيّ بأنّه "الأستاذ العَلَمُ الصدر المفتي القاضي رئيس الكتاب، ومعدن السماحة، ومنيع الآداب"⁽²⁾.

وقال عنه الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد الحداد الشهير بالواديّ أشي: هو "قاضي الجماعة، ومنقذ الأحكام الشرعيّة المطاعة، صدر البلغاء، وعَلَم العلماء، ووحيد الكبراء، وأصيل الحُباء، الوزير الرئيس المعظم أبي يحيى بن عاصم"⁽³⁾.

وقد امتاز ابن عاصم ببديع نثره الذي سلك به نهج ابن

يعدُّ الخطاب الحجاجيّ الرّكيزة الأساسيّة في إيصال الأفكار التي يريدها المتكلّم لدى المخاطب، وعليه فهو حلقة وصلٌ بينهما. ولا سيما اعتماد الخطاب الحجاجيّ على عدة مرجعيّات لتكوين هذا النصّ الخطابيّ، وتتمثل بالقرآن الكريم، والحديث النبويّ الشريف، وأقوال العرب. واعتماد المتكلّم على هذه المرجعيّات يحقق مجموعة من الأهداف، ومنها: إثارة المتلقى وإقناعه بما يذهب إليه المتكلّم، وغيرها.

وجاء هذا البحث متحدثاً عن الحجاج في خطبة ابن عاصم، وقد تجلّى اختيار هذا الموضوع من حيث كون خطبة ابن عاصم مرتكزة على هذا اللون الخطابيّ.

وقد تناول هذا البحث مفهوم الحجاج، وملامحه وضوابطه، وكيفية تكوين الخطبة الحجاجيّة من حيث عناصر الإقناع، وغيرها من القضايا في خطبة ابن عاصم.

كما سعى هذا البحث إلى بيان مواطن الحجج في خطبة ابن عاصم وكيفية توظيفه إيّاها في خطبته، وقد تنوعت هذه الحجج عند ابن عاصم من حيث القوة، وذلك حسب الموقف. وسعى إلى بيان كيفية التّأليل على الفكرة التي يطرحها، وذلك من أجل إقناع المتلقى بهذه الفكرة.

* قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأردنية. تاريخ استلام البحث 2015/12/27، وتاريخ قبوله 2016/8/14.

الخطيب. ولم يقف عند النثر، بل له نظم ومنه(4):

فديتك لا تسأل عن السر كاتبا

فتلقاه في حال من الرشد عاطل

وتضطره إما لحالة خائن

أمانته أو خائض في الأباطل

فلا فرق عندي بين قاضٍ وكاتبٍ

وشى ذا بسرٍ أو قضى ذا بباطلٍ

ومن شيوخه(5):

- الإمام المحقق أبو الحسن بن سمعة.

- والإمام القاضي أبو القاسم بن السراج.

- والشيخ الراوية أبو عبد الله المنتوري.

- والإمام أبو عبد الله البياني.

ومن مؤلفاته(6):

- جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، وقد استقينا

خطبة ابن عاصم من هذا الكتاب، من المجلد الثاني، ومن صفحة تسع وثمانين ومائتين إلى إحدى عشرة وثلاثمائة.

- الرّوض الأريض في تراجم ذوي السيوف والأقلام والقرىض. كأنه ذيل به إحاطة لسان الدين بن الخطيب.

- شرح تحفة الحكام لوالده.

ثانياً- الدراسة:

تمثل خطبة ابن عاصم خير مثال على الججاج وكيفية توظيفه عنده، وهذه الخطبة ترتكز ارتكازاً أساسياً وقوياً على الججاج، إذ كلّها قائمة على هذا اللون.

نقف أولاً عند مفهوم الججاج وملاحه وضوابطه، حتى يستقر لدى المتلقي حيثيات هذه الدراسة:

مفهوم الججاج لغة واصطلاحاً:

لغة: يقال حاججته أحاجة ججاجاً ومُحاجةً حتّى حاججته، أي: غلبته بالحجج التي أدلّيت بها. والحجة: البرهان، وقيل: الحجة ما دُفِعَ به الخصم(7).

الججاج اصطلاحاً:

الججاج هو "وسيلة المتكلم في جعل المتلقي يتقبل آراءه واتجاهاته وانتقاداته وتوجيهاته"(8). وهذا التعريف هو الراجح عندي.

وعرّف الججاج بأنه "كل كلام منطوق به موجّه إلى الغير؛ لإفهامه دعوة مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"(9).

وقد عرّف بلونتين الججاج تعريفاً عاماً، فقال: "هو العملية التي من خلالها يسعى المتكلم إلى تغيير نظام المعتقدات والتصورات لدى مخاطبه بواسطة الوسائل اللغوية"(10).

وعرّف بيرلمان الججاج من خلال تركيزه على وظيفته،

فقال: "هو حمل المتلقي على الاقتناع بما نعرضه عليه، أو الزيادة في حجم الاقتناع"(11). ويلاحظ من هذا التعريف أنه لم يكن تعريفاً عاماً، بل جاء مرتكزاً على جزئية معينة، وهي وظيفة الججاج.

وقد فرّق ديكرو بين معنيين للفظ الججاج، وهما(12):

1- المعنى العادي: اختصّ هذا المعيار بطريقة عرض الحجج وتقديمها، والذي يستهدف التأثير في السامع، ويكون بذلك الخطاب مفيداً وفعالاً. ويعدّ هذا المعيار الأول لتحقيق السمة الججاجية، ولا يكتمل هذا المعيار إلا بالاهتمام بطبيعة السامع المستهدف.

وقد راعى ابن عاصم هذا المعيار، فلم يغفل طبيعة السامعين؛ لأنّ لكلّ مقام مقال، ولأنّ مراعاة السامعين سبب نجاح الخطاب، مثل قوله: "وظاهر ظهور الشمس..."(13).

2- المعنى الفني: فهذا المعيار يدلّ على صنف مخصوص من العلاقات المؤدعة في الخطاب والمدرجة في اللسان، ويكون ضمن المحتويات الدلالية. وتتمثل الخاصية الأساسية للعلاقة الججاجية في أن تكون درجية، أو قابلة للقياس بالدرجات فتكون حينئذ ضمن واصله بين سلاسل. وقد بينت في هذا البحث كيفية استخدام ابن عاصم لهذا المعيار من خلال حديثي عن السلم الججاجي.

وقد استعمل القرآن الكريم لفظ الججاج في معناه الفني، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة: 258]. وكذلك قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 66].

وقد مرّ مفهوم الججاج بأطوار حتى تبلور تبلوراً دقيقاً، وهي(14):

1- مفهوم جعل الججاج مردافاً للجدل، ووجد هذا المفهوم عند القدماء وبعض المحدثين العرب.

إلا أنّ الججاج أشمل من الجدل، فإذا كان الجدل يمثل القسم الإقناعي من الخطاب، فإنّ الججاج هو جوهر الخطابة باعتباره فنّ الإقناع بالخطاب. كما أنّ أرسطو فرّق بين الججاج الجدلي الذي جعل مجاله فكرياً خالصاً، وهذا عادة ما يكون بين شخصين يحاول كلّ منهما إقناع صاحبه بوجهة نظر معينة. وبين الججاج الخطبي الذي جعل مجاله في توجيه الفعل وتشبيث الاعتقاد أو صنعه، وهو ججاج موجّه للجُمهور(15).

2- ومفهوم جعله قاسماً مشتركاً بين الجدل والخطابة خاصة، ووجد هذا المفهوم عند اليونان وخاصة أرسطو، وذلك لأنّ الخطابة بالمفهوم اليوناني كما ترجمها العرب القدامى

إثارة المشاعر والانفعالات⁽²²⁾. وهذا ما حصل مع ابن عاصم عندما أنشأ خطبته، فقد أراد تدارك الأمور التي تؤدي إلى ضياع الوطن؛ فعمل على استمالة قلوب الناس تجاه هذه القضية الكبرى.

وقد عدّ الحجاج علماً من العلوم له أركانه ومجالاته وطرائقه، فقبل عنه: "وهذا العلم من أرفع العلوم قدراً وأعظمها شأنًا؛ لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجة ولا علم الصحيح من السقيم، ولا المعوج من المستقيم"⁽²³⁾.

ومن المعروف أنّ الحجاج يعني بحشد الحجج، وربط أجزاء الكلام مع بعضها ببعض، ويعني أيضًا بجملته من الاختيارات الأخرى على مستوى التركيب، والناحية المعجمية، وأزمنة الأفعال، وصيغ الكلمات، وأنواع الصور، وغيرها⁽²⁴⁾.

ويمكن تقسيم الحجاج بحسب نوع الجمهور إلى نوعين⁽²⁵⁾:
الأول: الحجاج الإقناعي، وهذا النوع يرمي إلى إقناع جمهور خاص.

الثاني: الحجاج الاقتناعي، وهذا النوع يرمي إلى أن يُسلم به كلّ ذي عقل، وهو عام.
ويمكن لنا أن نصنّف خطبة ابن عاصم لهذا النوع الثاني، فكان توجهها من قبله لعامة الناس.
ويرتكز النصّ الخطابي الحجاجي على ثلاثة أمور، وهي⁽²⁶⁾:

1- البصر بالحجة: ويتمثل هذا النوع بالظفر بالحجج والتفكير في مكونات الخطاب، ويكون بحسن التدبير، والنقاط المناسبة بين الحجة وسياق الاحتجاج في صورتها المثلى؛ وذلك حتى يسدّ المتكلم السبيل على المستمع، فلا يجد منفذاً إلى استعطاف الحجة والخروج عن دائرة فعلها. والغالب عند إنشاء الخطبة لا يبتدع الخطيب تلك الحجج أو ينشئها بالنصّ على غير رسم. وعليه فالناظر في خطبة ابن عاصم يلمح هذا الجانب فإنّه أحسن صياغتها وضبطها، فدلّ هذا على أنّه استعدّها لها وهو يكتبها منذ فترة.

2- ترتيب الأقسام: بعدما كون الخطيب حجج خطبته، يبدأ بالتفكير في كيفية ترتيب هذه الحجج بحيث يجعلها مترابطة بعضها مع بعض، ووضع كلّ واحدة في المكان المناسب لها فيزدها ذلك قوة، ويمكن لها في ذهن المخاطب. وقد تنبه ابن عاصم لهذا الأمر في خطبته، ويتضح هذا جلياً من خلال حديثي عن هذا البحث فيما بعد.

3- العبارة: في هذه المرحلة الثالثة يتّجه الخطيب للبحث عن اللفظ المناسب، الذي به يخرج كلّ ما كان في ذهنه

كانت تعني فن الإقناع عن طريق الخطاب⁽¹⁶⁾. ومن هنا حصل التشابه بينها وبين الحجاج، وعليه فإنّ نقطة الالتقاء بينهما كانت بالوظيفة الإقناعية.

3- ومفهوم استقلّ فيه الحجاج عن صناعة الجدل من ناحية، وعن صناعة الخطابة من ناحية أخرى، وكان هذا المفهوم في العصر الحديث في الغرب. ولعلّ السبب في استقلاليته هو كونه قد أخذ شيئاً فشيئاً في الاستواء مبحثاً فلسفياً ولغوياً قائم الذات في العصور الحديثة، فاستقلّ عن الجدل والخطابة.

وقد عمدت إلى استعمال مصطلح الأطوار؛ لكون مفهوم الحجاج مرّ بأطوار حتى وصل إلى مرحلة النضج، وقد تمثلت هذه الأطوار بداية بعدم تبلور المفهوم، وكان ذلك ناشئاً عن الخلط بينه وبين الجدل والخطابة.

ويبدو لي أنّ ما جعل هذا المفهوم - المفهوم الثالث - أدق وأعمق، هو تبلور مفهوم الحجاج في العصر الحديث عن العصور السابقة، وهذا شيء طبيعي؛ لأنّ بداية تكوين المفاهيم والنظريات لا بدّ من أن يكتنفها الغموض، ثم تتجلى بالوضوح والدقة فيما بعد.

وثمة مفهوم جعل لفظة البلاغة المقصود منها الحجاج، وهذا المفهوم تنبّه إليه الجاحظ (ت 255هـ)، ومن الأمثلة على ذلك:

قوله: "قال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة"⁽¹⁷⁾. وقوله: "كان سهل بن هارون يقول: سياسة البلاغة أشدّ من البلاغة"⁽¹⁸⁾.

والمتمأل في هذين التعريفين وغيرهما من التعريفات التي ذكرها الجاحظ للبلاغة يدرك أنّ البلاغة هي الحجاج دون شك في هذا الأمر، "وذلك أنّ كلّ حدّ من هذه الحدود التي عرض لها الجاحظ تتناول قضية من قضايا الحجاج الكبرى، وآلية من آليات اشتغاله في الخطاب؛ فالفصل والوصل، وتصحيح الأقسام، والبصر بالحجة، والتماس حسن الموقع، ومعرفة ساعات القول، إلى غير ذلك من القضايا"⁽¹⁹⁾.

وبعد الحجاج "حلقة ضرورية تمرّ عبرها كلّ العلوم، وقد يكون التوجه الحجاجي فلسفياً نصّياً، أو توجهاً لفظياً بحسب زوايا التداول؛ كالتركيز على المتكلم مثلاً بكونه زاوية للتفاعل⁽²⁰⁾. كما أنّ الحجاج "يفعل اتكائه على اللغة، واستثماره لجهازها المفاهيمي والمجازي في التوضع النسقي، يغدو واقعة معرفية ثقافية، ترتب دائماً إلى تعددية اللامتوقع"⁽²¹⁾.

والحجاج الخطابي "هو حجاج موجه إلى جمهور ذي أوضاع خاصّة، في مقامات خاصّة. والحجاج ههنا ليس لغاية التأثير النظري العقلي، وإنما يتعداه إلى التأثير العاطفي، وإلى

وذاكرته إلى الوجود والفعل، وبهذا تخرج الحجج والقضايا إلى المستمع في الصياغة النهائية.

وقد أراد ابن عاصم إقامة الحجة على الناس وتنبههم تجاه الخطر، الذي سيؤدي إلى ضياع الوطن، فعندما أحس بذلك عكف على إنشاء خطبته، فقال: "ونبسط كفّ الضراعة والاضطرار، في كفّ الفتن، عن هذا الوطن، وكفّ الكفار، عن هذه الديار، وتيسير الفرج القريب، لهذا القطر الغريب، وتسهيل الصّعب العسير، لهذا الصّقع النائي عن الولي والنّصير" (27).

ملامح الججاج:

وبما أنّ الججاج آلية تجسد الخطاب الإقناعي، فإنّ له عدداً من الملامح، إذ يميّز الججاج بخمسة ملامح رئيسية، وهي (28):

- 1- يتوجه إلى مستمع.
- 2- يعبر عنه بلغة طبيعية.
- 3- مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية.
- 4- لا يفتقر تقدمه (تناميه) إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة.
- 5- ليست نتائجه (خلاصاته) ملزمة.

ضوابط التداول الججاجي:

هناك عدد من الضوابط الججاجية التي يفترض في المرسل أن يلتزم بها، ومن هذه الضوابط (29):

- 1- أن يكون لدى المرسل ثقافة واسعة.
- 2- أن يكون الججاج ضمن إطار الثوابت، مثل: الثوابت الدينية، والثوابت المعرفية، فليس كلّ شيء قابلاً للنقاش أو الججاج. فهناك كثير من المسلمات يجب احترامها.
- 3- ضرورة خلو الججاج من الإبهام والمغالطة وعلى المرسل الابتعاد عنهما.
- 4- أن تكون دلالة الألفاظ محددة.
- 5- ألا يقع المرسل في التناقض بقوله أو بفعله.
- 6- موافقة الججاج لما يقبله العقل، وإلا بدا زيف الخطاب ووهن الحجة.

- 7- توفر المعارف المشتركة بين طرفي الخطاب، مما يسوّغ قبول المرسل إليه لحجج المرسل، أو إمكانية مناقشتها أو تنفيذها، وإلا انقطع الججاج بينهما، وتوقفت عمل الفهم والإفهام، بل الإقناع.
- 8- أن يأخذ المرسل في اعتباره تكوين صورة عن المرسل إليه أقرب ما تكون إلى الواقع قدر الإمكان. إذ ينتج عن تجاهله تصوّر قاصر، أو عن حصول مجموعة من الظروف غير المتوقعة، وهذا قد يؤدي إلى نتائج غير مرغوبة فيها؛ لأن اختيار الحجج وترتيب أولوياتها تتوقف على تلك المعرفة.

9- مناسبة الخطاب الججاجي للسياق العام؛ لأنّه هو الكفيل بتسويق الحجج الواردة في الخطاب من عدمها، فقد يكون الججاج صحيحاً من الناحية النظرية، ولكنّه غير مناسب للسياق.

وابن عاصم توفرت لديه هذه الضوابط واللامح، فقد وقف الباحث في غير موضع في هذا البحث عندها، مثل: أثر ثقافة ابن عاصم، ومراعاته للسياق العام في تكوين الخطبة، وغيرهما في تضاعيف البحث.

الأسس التي اعتمد عليها ابن عاصم في خطابه الججاجي الإقناعي:

1- البراهين: لقد اعتمد ابن عاصم في سوق البراهين التي تؤيد حججه على ثقافته المعرفية، وإلا بقيت خطبته عبارة عن مجرد كلمات متناسقة إلى جانب بعضها، وبذلك لا جدوى منها.

ومن الأمثلة على ذلك قوله: "ومن استقرأ التواريخ المنصوصة، وأخبار الملوك المقصوصة علم أنّ النصارى - دمرهم الله - لم يُدركوا في المسلمين تاراً، ولم يرحضوا عن أنفسهم عاراً..." (30).

فقوله: ومن استقرأ التواريخ، فيه دلالة على أنّ ابن عاصم اطلع وقرأ التواريخ المنصوصة وأخبار الملوك، فهو على علم بها، فدلّ هذا على زيادة مخزونه اللغوي.

وقد تنوّعت البراهين في خطبة ابن عاصم، وكانت ضمن نوعين (31):

الأول: البراهين جاهزة: وهي الاستشهاد بالقرآن الكريم، وما روي من حديث (كلام) عن الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وأقوال العلماء، والمثل.

مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج:18].
الثاني: البراهين غير الجاهزة: وقد تمثل هذا النوع بالمحسنات البديعية.

2- الأسلوب: لم يكن أسلوب ابن عاصم سهلاً، بل كان يحتاج إلى تفكير في نضوج هذا الأسلوب عنده. ولعلّ قوة الأسلوب عنده ظهرت من خلال نوعية المفردات التي تصب في قالب التراكيب التي اختارها، إذ برع بقدرته اللغوية على هذا السّوغ في القالب (الأسلوب). وعلى هذا فإنّ لكل شخص قالب يختلف عن الآخر.

ومن الأمثلة على ذلك: ففي خطبة ابن عاصم نجد التلاعب اللغوي بالألفاظ، ومن ذلك استخدامه للفظتين: استقلت، واستقرت. فقال: "إلى أن استقلت هذه الدولة النصيرية على قواعد الراسخة، واستقرت بأحلامها الراجحة وأعلامها الشامخة" (32).

الخطبة؛ لأنها تعدّ من وجهة نظرة مبنية بناءً محكمًا. والمحصلة الججاجية في الخطبة ينهض بها القول بأركانه الثلاثة - حسب أرسطو-، وهي⁽³⁵⁾:

القول، والقائل، والمقول له.

ويمكن أن نتمثل هذه الأركان كما يلي:

1- القول: وتمثل هذا بنص خطبة ابن عاصم.

2- القائل: ابن عاصم.

3- المقول له: وهم جمهور الناس الذين يستمعون الخطبة.

وخير مثال على الإقناع بالكلام المبرهن هو حديثه عن العلماء وتعريفهم، فكأنه أراد أن يبين أو يبرهن للناس من هذه الفئة، وبذلك يتلقى منهم قبول نصّه الججاجي، الذي لا تشوبه شائبة، فهو نصّ محكم لا يعترضه النقص، وقوله هو:

"والعلماء الذين هم حفظة الشريعة الحنيفية أن تتعدى حدودها، والأشياخ الذين بجهادهم استقر واجبها، واستقام جانبها، واستقلّ عمودها، والفؤاد الذين بحمايتهم تقام أحكامها، وتُحاط أعلامها، وتُوفى عهودها، والفرسان الذين هم حُماتها وأنجادهما، وأنصارها، والخاصة الذين بهم يَرَجَحُ عملها، وينجح أملها، ويتم مقصودها"⁽³⁶⁾.

وكان تعريف ابن عاصم لهؤلاء العلماء تعريفًا مفصلاً، ينم عن معرفته بما يدور حوله، من عدّة مجالات.

وتظهر إقامة الحجّة على هذه الفئات من خلال قوله: "تعلمون حقاً أن هذا الوطن الأندلسي كان قد تعين للهلاك بسبب هذا الخلاف، وتوقعت القلوب المشفقة حدوث الفاقة بوقوع هذا الاختلاف"⁽³⁷⁾. فاخياره لفظة "تعلمون" من علم، فهنا لا مجال للشك، بل اليقين هو الثابت؛ أي: أنتم متيقنون من أن الخلاف الحاصل سيؤدي إلى ضياع الوطن، فلم يعد هناك من يحمي الوطن من أي اعتداء عليه من الخارج؛ لأنّ المتصرّفين بالأمر منشغلون في النزاع الداخلي، وعليه أصبح الوطن الأندلسي هشاً، فيكون الحصول عليه دون عناء.

ومن هنا يبرز لنا دور العلماء في الإقناع وأثرهم في قبول النصّ الججاجي:

ارتكز ابن عاصم في بناء نصّه الججاجي على قوة أساسية تدعم هذا البناء، ألا وهي الفئة المتعلمة وهي فئة العلماء، إذ إن قولهم له وقع في آذان السامعين، ودليل هذا عندما ذكر هذه الفئات بأسمائها - ذكرت ذلك قبل قليل-، وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد:16]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر:13]. أراد ابن عاصم إقناع المجتمع، فبين لهم دور هذه الفئة، وبعد ذلك يقوم العلماء بتوجيههم نحو

وقد غلب على الأسلوب الموازنات الصوتية الإيقاعية، وقد تمثلت بألفاظ متناظرة التركيب ومتجانسة القافية، ومن الأمثلة على ذلك قوله: "وتناولت الأيام بين مهادنة ومقاطعة، ومقاربة ومُقارعة، ومنازلة ومنازعة، ومحاربة ومودعة"⁽³³⁾.

وكذلك نجد في خطبة ابن عاصم ما هو أقرب إلى لزوم ما لا يلزم، من مثل:

قوله: "الحمد لله الذي عوض من الخلاف وفاقاً، وأعقب من الافتراق اجتماعاً واتفاقاً، وهياً لأسواق الائتلاف، برفع الاختلاف نفاقاً"⁽³⁴⁾.

وفاقاً - واتفاقاً - نفاقاً:

فهذه المقاربة بين الألفاظ بعضها ببعض أشبه ما هو لزوم ما لا يلزم في خطبة ابن عاصم.

3- الترتيب: وقد اعتمد ابن عاصم في ترتيب الحجج بشكل متسلسل، ومبين للأفكار التي سيطرحها، وربطها بالنتائج الواقعية التي تحتمل التصديق لدى المتلقي، مثل: الإهمال بالوطن والفرقة بين الناس سيؤديان إلى الاستيلاء عليه.

وعناصر الإقناع التي تمثلها ابن عاصم في خطبته والتي تتمثل في ثلاثة عناصر، وهي:

1- بدأ خطبته بمقدمة طويلة: استهلّ ابن عاصم خطبته بمقدمة طويلة، التي لم تودّ إلى ملل القارئ.

2- الإقناع بالكلام المبرهن من خلال توظيف ثقافته في الخطبة:

وقد ارتكز ابن عاصم على مجموعة من الأهداف التي تحقق نجاح خطبته، وهذه الأهداف هي الأساس في نجاح أي خطبة تعتمد الطريقة الإقناعية، وهي:

1- وضوح الأهداف التي ترمي إليها الخطبة.

2- خلو الخطبة من أي مناقضات أو مغالطات ترمي إلى ضعف النصّ الججاجي.

3- سوغ الحجج بطريقة سلسة ومنظمة.

4- الجمع بين الرأي الموافق والرأي المعارض، واعتمد ابن عاصم على هذا كثيراً في خطبته.

5- الاعتماد على الاستشهاد من القرآن الكريم، أو الحديث النبوي، بما يدعم الخطبة في الإقناع لدى المتلقي.

وقد اعتمد ابن عاصم طريقة الإقناع في سوغ خطبته؛ وذلك لاستمرارية خطبته وحتى يحقق غاية التأثير في نهايتها لدى المتلقي، بينما الخطبة التي لا تعتمد على وسائل الإقناع، لا تتلقى الاهتمام من المتلقي (السامع). وبناءً على ذلك فالخطبة التي تحمل صياغة المضامين بطريقة علمية مقنعة في الأفكار والمعاني والاستشهاد بالقرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف وغيرهما من الشواهد، فحينئذ يتقبل السامع هذه

أثر الاحتكام إلى اللغة في نجاح الخطبة الججاجية:

إنَّ الاحتكام للغة وقواعدها، وجعلها بين نُصَب عين الكاتب، هي سر نجاح الخطبة الإقناعية، فلو كانت اللغة ركيكة لدى الكاتب، وكان استعمال قواعدها من غير الاهتمام بالناحية الإعرابية أو البلاغية أو البيانية سيفقد النصَّ حقه عند المتلقي.

وبناء على ما تقدم اتضح لنا أنَّ آلية الإقناع اللغوي تتمثل بما يلي:

- 1- كيفية اختيار المفردات التي تجلب انتباه السامعين.
- 2- كيفية سوغ المفردات في جمل متناغمة.
- 3- المراوحة بين الجمل الخبرية والإنشائية.
- 4- الاعتماد على الصور البيانية.

السلم الججاجي في خطبة ابن عاصم:

تعريف السلم الججاجي:

هو "مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية ومستوية للشرطين التاليين:

الأول: كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال الأخرى.

الثاني: كل قول في السلم كان دليلاً على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلاً أقوى" (43).

وكان قصد ابن عاصم في تقديم الحجج المتنوعة، هو التأثير على المتلقي وإقناعه بأنَّه يمتلك الكفاءات التي تؤهله في إقناع الناس بخطبته، والاستجابة لمطالبه التي سيبحثها من خلال هذه الخطبة، وأبرزها حماية الوطن الأندلسي.

ويؤيد هذا الأمر عند الباحث هو الغاية من الججاج فما هي؟ هي التأثير في المتلقي من خلال استمالاته نحو القضايا التي يطرحها الكاتب (الخطيب)، مما يقتضي التناغم والانسجام الفكري بين الخطيب والسامع؛ ليحصل التأثير، وعليه فالخطاب الججاجي هو حلقة وصل بين الخطيب والسامع، وهذه الحلقة تعدُّ مهمة للخطيب أكثر من السامع، إذ بها يكون صوغ أفكاره بصورة مقنعة تجاه السامع.

والخطاب الججاجي موجه للتأثير على آراء وسلوكيات المخاطب أو المستمع، وذلك بجعل أي قول مدعم صالحاً أو مقبولاً كنتيجة بمختلف الوسائل التي يستعملها الكاتب (44).

وهذا المذهب يلتقي فيما ذهبُ إليه من أنَّ الهدف من تقديم الحجج هو التأثير على المتلقي وإقناعه بأنَّ الكاتب لديه قدرات في كيفية بثِّ آرائه ومن ثمَّ تقبلها.

تعرفنا على الغاية من الججاج، وعليه يمكن أن نقول أيضاً

الصواب في مصلحة الوطن. ولهذا نبه ابن عاصم على دور العلماء، وقال أيضاً: "والعلماء بمعاناة اتفاق القلوب إلى الله مزدلفة" (38).

3- إثارة المشاعر:

ويتمثل هذا العنصر بعدة جوانب، منها: ذكره للفظه "الوطن الأندلسي" فهو هنا يستعطف ويثير مشاعرهم، وهنا يبرز عنصر الإقناع، ألا وهو إثارة المشاعر واستمالة قلوبهم، ولمعرفته أنَّ العلماء، والأشياخ، القواد، والفرسان، والخاصة هم سبب الاختلاف إذ رأيهم يكون محطَّ اهتمام في نظر الجمهور.

4- اعتمد ابن عاصم في خطبته على أمرين:

أ- التحذير: وتمثل هذا التحذير من وقوع الكارثة في الاستيلاء على الأندلس، ومن الأمثلة على ذلك:

تحذير ابن عاصم للناس من أفعال ملك قشتالة، التي تكمن في الظاهر أنَّه حام للوطن، ولكنه في الباطن يريد الاستيلاء على وطنهم، فقال: "... وهو يظهر أنَّه ساع للوطن في العاقبة الحسنى، وأنَّه مُنطوٍ لأهله على المقصد الأسنى، وأنَّه مهتم بمراعاة أمورهم، وناظرٌ نظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم، وهو يُسرُّ حسوا في ارتغائه الحيلة في التماس هُلك الوطن وابتغائه" (39).

ب- التبرير: وبعد أن قام بالتحذير من الوقوع بالكارثة، بدأ يبين ويررر كيفية الخلاص من هذه الكارثة، فقال: "وتعاقدوا عن أن لا تُبقوا من الخلاف أثرًا، واتفقوا على القصد الذي يخلصكم عند الله سمعًا وبصرًا" (40).

منطقية الخطبة:

لقد راعى ابن عاصم الأسس المنطقية في خطبته، فكانت هذه المنطقية بسيطة، كما خلت الخطبة من الخيال أو مناقضة الواقع والحقيقة، وهذا أمرٌ مهم في الخطبة ويثبت براعة ابن عاصم في سوغ خطبته.

وعليه جاء نقاش ابن عاصم للأوضاع التي حدثت في وطنه بألفاظ قريبة من ذهن المتلقي، بعيدة عن العبارات التي تتسم بالخيال، أو المناقضة للواقع، ومن الأمثلة على ذلك قوله:

"وتناولت الأيام بين مهادنة ومقاطعة، ومقاربة ومقارعة، ومنازلة ومنازعة، ومحاربة وموادة، ولا أمل للطاغية إلا في التمرُّس بالإسلام والمسلمين، وإعمال الحيلة على المؤمنين، وإظمار المكيدة للموحدين، واستبطان الخديعة للمجاهدين" (41). ثم قال: "فتبَّ لعقول تقبل مثل هذا المحال، وتصدق هذا الكذب البحت بوجه أو بحال..." (42) فجاءت ألفاظه مناسبة لطبقات المجتمع؛ حتى يسهل فهم ما يقال.

ما الغرض من الخطبة، فالغرض منها هو "الإفهام أولاً فلا إقناع، أو الحمل على الإذعان ثانياً" (45).

واعتمد ابن عاصم في ترتيب حججه حسب قوتها، فكان يبدأ بالحجة البسيطة، ثم يأتي بالحجة القوية، ثم الحجة الأقوى، وهكذا التدرج في طرح حججه. ولم يقف عنده السلم الحجج عند الحجج فقط، بل تعداه إلى النتائج فكان يضعها في السلم التدريجي الحجج، وفيما يلي بيان ذلك:

ومن الأمثلة على ترتيب ابن عاصم لحججه التي توصل إليها في الخطبة حسب قوتها:

ومن هذه الحجج:

الحجة البسيطة: "وإن في أحوال الوقت الراهنة لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وعبرة لمن تفهم معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج:18]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:1]. وتبصرة لمن ذهل عن التعبيرات الألهيّة..." (46).

والحجة المتوسطة: "وبينما الفرقة حاصلة، والقطيعة فاصلة، والمضرة واصله، والحيل في انبثات، والوطن في بثات، والخلاف يمنع رعي مُمات، والقلوب شتى من قوم أشتات" (47).

والحجة القوية: "أن هذا الوطن الأندلسي كان قد تعين للهلاك بسبب هذا الخلاف، وتوقعت القلوب المشفقة حدوث الفاقة بوقوع هذا الاختلاف" (48).

ومن الأمثلة على ترتيب ابن عاصم لنتائجه التي توصل إليها في الخطبة حسب قوتها:

ومن هذه النتائج:

النتيجة الأولى: بعد أن بين الفرق بين المسلمين والنصارى، إذ إن النصارى يختلفون مع المسلمين، فتوصل إلى نتيجة وهي: "فكيف يرجى من هؤلاء الكفرة من الخير مثقال الذرة، أو يطمع منهم في جلب المنفعة أو دفع المضرة؟!..." (49).

النتيجة الثانية: "وقد سلط علينا كثير من الظلمة الذين أعانهم، فعند ذلك لعناهم...، وكادت العقوبة العظيمة أن تلحق والأخذة الزابية أن تحقق، لولا أن الله تدارك بالعفو وتجاوز عن الهفوة" (50).

النتيجة الثالثة: "فلنقدّر قدر هذا التدارك الذي أخذ بأيدينا من مهاوي الانتقام، ولنتأمل موقع هذا التلافي الذي أحلنا من تجديد النعمة بأسنى مقام، ولنجذر نسيان ما ذكرنا به، فلم نذكر بتلك الشدائد لننساها" (51).

النتيجة الرابعة: "فلنجعل ما وعظ الله - عز وجل - به من تلك الأزمات تُصَب الأعين، وليتخذ حمده على ما منحنا من الإقالة هجيري الألسن، وليعلم أن ذلك التمهيص إنما كان تنبيهاً من الله - عز وجل - على عطلنا من حدوده..." (52).

ومن الآليات البلاغية والصور الحجاجية (53):

1- الشاهد.

2- أقوال العلماء.

3- المثل.

ونفصل الحديث عن بعض الآليات البلاغية والصور الحجاجية:

1- المحسنات البديعية:

وقد استخدم ابن عاصم المحسنات البديعية كآلية بلاغية حجاجية، وذلك من أجل محاولة التأثير في نفس المستمع وإقناعه واستمالته، ومنها: الطباق والسجع فقد أكثر وتفنن فيهما ابن عاصم في استخدامهما في العملية الحجاجية.

ومن استخدام ابن عاصم للطباق لغاية حجاجية: "الحمد لله الذي عوض من الخلاف وفاقاً، وأعقب من الافتراق اجتماعاً وانفاقاً، وهياً لأسواق الائتلاف، برفع الاختلاف نفاقاً" (54).

وقد ضمن هذه الفقرة ببعض الثنائيات، وجاءت هذه الثنائيات على شكل الطباق، وهي:

- الخلاف والوفاق - الافتراق والاجتماع - الاتفاق (الائتلاف) والاختلاف

وقد لجأ إليها "المتكلم" من أجل تدعيم طرح خطبته، ويمكن أن نعد كل ثنائية بمثابة حجة، وذلك نحو: وصف ابن عاصم حاليتين، وهما: ما كنا عليه، وما أصبحنا عليه. ما نحن فيه، وما نتطلع عليه.

ومن استخدام ابن عاصم للسجع لغاية حجاجية:

"ويسر لوطن الجهاد من توتر المهاد، أرفاقاً، وزين بأنجم السعود، من النصر الموعود آفاقاً، وعقد على جمع الكلمة من الأمة المسلمة، اجتماعاً وإصفاقاً. نحمده سبحانه، وهو المحمود بجميع اللغات" (55).

السجع بين "أرفاقاً" و"آفاقاً". وضمن السجع الرئيسي سجع آخر مختلف عنه في داخله ومنه ما بين "المهاد" و"السعود". ثم رجع إلى السجع الرئيسي وهو بين "آفاقاً" و"اجتماعاً وإصفاقاً".

وجاءت الحجج مسجوعة؛ ليقنع المتلقي فيما يعرضه، ويبين له ما يريده بأسلوب سلس وخفيف على السمع.

ولعل استخدام ابن عاصم للسجع لم يأت من فراغ، وذلك لأن "السجع في البلاغة العربية من أهم الظواهر الأسلوبية في النثر، وهو يعطي الكلام مكانة أقرب إلى الرجز والقصيدة وإن كان دونهما" (56). وبهذا عمد ابن عاصم لهذا اللون لإحداث بعض الموسيقى لخطبته، ولتتناغم أيضاً آذان المستمعين بهذه الموسيقى.

2- الشاهد:

ويتمثل الشاهد عند "أرسطو" بالقوانين والشهود، والاعترافات، وأقوال الحكماء. أما في الخطابة العربية فتضمن الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأبيات الشعر، والأمثال، والحكم، وهي حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها، ومن مصادقة الناس عليها وتواترها⁽⁵⁷⁾.

ويعدّ الشاهد من الحجج القوية التي اعتمد عليه ابن عاصم في خطبته، وهو بمثابة الحجة الجاهزة التي يستخدمها المتكلم للوصول إلى أهدافه وأغراضه الججاجية، وهو يحمل درجة عالية من التصديق لدى المتلقي، لذا اعتمد عليه ابن عاصم. وقد تنوع الشاهد عنده من القرآن الكريم، وما ورد من كلام رسولنا الكريم محمد - صلى الله عليه وسلم - وأقوال بعض العلماء.

أنواع الشاهد:

1- الشاهد من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: 103].

فقد استدل المتكلم بهذه الآية القرآنية؛ لأنها تمثل له الحجة الأقوى، وتعدّ أفضل دليل لإقناع المتلقي، وذلك لأن المتلقي لا يستطيع أن يشكّ في كلام الله - عزّ وجلّ-؛ لأنّ ما يقوله سبحانه وتعالى هو الصحيح. وبهذا استشهد به المتكلم ليصل إلى مبتغاه وإلى مراميه الججاجية، ألا وهي التذكير بالنعمة.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103].

استدل المتكلم بهذه الآية الكريمة بمثابة حجة ليؤثر على المتلقي ويقنعه بما يذهب إليه، وهو: يريد من ولاية الأمر في الأندلس أن يكونوا يداً واحدة، وأن يعزموا العزم في مواجهة المخاطر التي تواجه الوطن الأندلسي.

2- الشاهد من أقوال العلماء:

قول تاج الدين: "ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يظهر في الوقت خلاف ما أظهره الله - عزّ وجلّ - فيه"⁽⁵⁸⁾. وقد دعم رأيه من قول رجل عالم.

3- الشاهد من المثل:

المثل يعدّ حجة قوية جاهزة، وتكتسب هذه الحجج قوتها من مصادرها، ومصادقيتها في نظر الناس لها.

وقد ضمن ابن عاصم خطبته المثل، ومنها المثل الآتي: "إياك أعني واسمعي يا جارة"⁽⁵⁹⁾. والعبرة من ذلك هي: هو يطلب من ولاية الأمر الوقوف إلى جنب الوطن بالدفاع عنه، لا

أن يفقوا مكتوفي الأيدي، أو عدم الاهتمام للأمر، أو ركونه لفئة معينة، بل يريد الكل يعملون على حماية الوطن الأندلسي. وفي هذا تشابه مع معنى المثل السابق الذكر.

أجزاء الخطاب الججاجي عند ابن عاصم:

وقسم رولان بارت أجزاء الخطاب الججاجي إلى أربعة عناصر، وهي⁽⁶⁰⁾:

1- الاستهلال 2- السرد

3- الإثبات 4- الخاتمة

ويمكن تقسيم هذه العناصر إلى عنصرين⁽⁶¹⁾:

1- استدعاء الأحاسيس: وهو الجزء العاطفي الذي يضم الاستهلال، والخاتمة.

2- الدعوة إلى دليل: وهو الجزء البرهاني الججاجي، ويضم السرد، أي: علاقة الأحداث. والإثبات: وهي طرق الإقناع والأدلة.

ونطبق هذه العناصر في خطبة ابن عاصم على النحو التالي:

أولاً: الاستهلال:

بدأ ابن عاصم بالاستهلال الرقيق المريح لنفس المستمع، فبدأ بالطمأنينة المستمع وذلك بنفي الفقرة، ونراه يضع بين أيدينا صورة المجتمع الأندلسي المتسامح، الذي تسوده المحبة والبعد عن البغضاء، لكن هل هذا يبقى أم أنه سيتحول؟⁽⁶²⁾. فلنتأمل البقية.

وقوله الذي يبعث على الطمأنينة هو:

"الحمد لله الذي عوّض من الخلاف وفاقاً، وأعقب من الافتراق اجتماعاً وانفاقاً، وهياً لأسواق الائتلاف، برفع الاختلاف نفاقاً، ويسّر لوطن الجهاد من ثور المهادر، أرفاقاً، وزين بأنجم السعود، من النصر الموعود أفاقاً، وعقد على جمع الكلمة من الأمة المسلمة، اجتماعاً وإصفاً. نحمده سبحانه، وهو المحمود بجميع اللغات"⁽⁶³⁾.

وقد ضمن ابن عاصم بداية الاستهلال التذكير بالله - عزّ وجلّ- ثم ذكر الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم- وزاد في هذا الوصف⁽⁶⁴⁾، وألمح من هذا الوصف، ألا وهو التوسع في الاستهلال ما يلي:

تذكير الناس بالآخرة، والدين القويم هو الدين الإسلامي فجعل اجتماع الناس على هذا الدين الإسلامي بالرباط الوثيق، وكذلك الحال بأهل الأندلس، وقد أشار لهم من خلال النسل.

ثانياً: السرد:

ويقوم الكاتب (المتكلم ابن عاصم) في هذا القسم بالعرض المفصل لما تمّ اختصاره في المجمل، أي: في بداية حديثه، وعليه فالسرد هو عبارة عن عرض الأحداث.

إلى سبيل السلف الذين سبقوا⁽⁶⁸⁾.

ثم يجمع هذه النتائج بالاستشهاد بقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103].

ويصل ابن عاصم في خطابه الحجاجي إلى الذروة في الأزمة، فيحاول هنا وجود حل لها ويكون عاجلاً، فقال: "فلنجعل ما وعظ الله - عز وجل - به من تلك الأزمات نُصَب الأعين، ولنتخذ حمده على ما منحنا من الإقالة هجيري الألسن، وليعلم أن ذلك التمحيص إنما كان تنبيهاً من الله - عز وجل - على عطلنا من حدوده..."⁽⁶⁹⁾.

ويريد الحل من ولاة الأمر، ويجب عليهم أن يمتثلوا لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: 75]. أي: يصلحون ذاتهم ويتعدون عن الفرقة من أجل إصلاح الوطن الأندلسي.

وهو على مشارف إنهاء خطبته إذ يؤكد على الإصلاح النفسي بشكل ضروري لإصلاح الوطن وعدم ضياعه، وجعل الأعداء يستولون عليه بكل سهولة بسبب الفرقة الداخلية.

رابعاً: الخاتمة:

وتتضمن الخاتمة مستويين⁽⁷⁰⁾:

- 1- مستوى الأشياء: وضع استرجاعي وهدفه التلخيص.
- 2- مستوى الأحاسيس: وضع تأثري، وهدفه الخلاصة المثيرة للعاطفة.

ويقف ابن عاصم حائراً، إذ رأيانه سابقاً يعلو خطابه الحجاجي بترهيب المستمعين، وإذ به هنا يرهب نفسه قبل المستمعين، فيقول: "فلنقدر قدر هذا المتدارك الذي أخذ بأيدينا من مهاوي الانتقام، ولنأمل موقع هذا التلاقي الذي أحلنا من تجديد النعمة بأسنى مقام، وليحذر نسيان ما ذكرنا به، فلم نذكر بتلك الشدائد لننساها، ولا نفرح بما أوتينا فرح المغرور الذي لا يتراجع عن سيئة ولا يتمناها، فإن ذلك موجب أمل الشيطان وسوله، ولعن الله - عز وجل - ومقته فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: 44]"⁽⁷¹⁾.

ثم يسلم خطبته بما استشهد به بعض عبارات خطبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - قوله: "اللهم هل بلغت، وبالغت في النصيح وأبلغت، اللهم فاشهد، اللهم فاشهد"⁽⁷²⁾.

أثر ثقافة ابن عاصم في تقوية الحجاج في الخطبة يتبين أثر ثقافة ابن عاصم في تقوية الحجاج في الخطبة من خلال محورين:

المحور الأول: استعرض ابن عاصم ثقافته الواسعة من خلال رجوعه إلى أسس نظرية اعتمد عليها في الحكم على

وفي هذا القسم بدأ ابن عاصم بسرد الأحداث، وتمهيد لعرض الموضوع الأساسي لخطبته.

فبدأ بعرض تذكير الناس بأن النصر بيد الله - عز وجل - ومن هنا يوحى ابن عاصم لنا إلى أن ثمة مشكلة تؤرقه فهو يريد إيصالها إلى المتلقي بشكل تدريجي.

وتبدأ نبرة ابن عاصم الحزينة، تظهر تجاه وطنه الأندلس، فهو يمد يده لله - عز وجل - بالدعاء لكف الأذى عن الأندلس، وهذا الأذى داخلي وخارجي.

فأي أسلوب حجاجي لا بد أولاً من أن يعرض فيه الكاتب قضية، أو مشكلة التي من أجلها جاءت الخطبة - مثلاً - ونجد ابن عاصم يمهد لذلك بقوله:

"ونبسط كف الضراعة والاضطرار، في كف الفتن، عن هذا الوطن، وكف الكفار، عن هذه الديار، وتيسير الفرج القريب، لهذا القطر الغريب، وتسهيل الصعب العسير، لهذا الصقع الثائي عن الولي والتصير، فيجمع به من القلوب النافرة، والنفوس المتنافرة، افتراقاً، ونجعل دم العداة، بسيوف الحماة الكماة، مرقاً، ويتحف بأنبيائه المعجبة، وأخباره المغربة المطربة، شاماً وعراقاً"⁽⁶⁵⁾.

فالقوة الحجاجية عند ابن عاصم، تظهر من خلال بيانه بأنه إذا عظم البلاء، واشتد الأمر الصعب، فلا بد لكم من الحرب، ويقوي هذا - الحث على الحرب - بحجة وهي: "وإذا كان الابتلاء، ورفع ما يقتضيه الإملاء، وعظم الاختبار والتمحيص، وأعوز المناص والمحيص، فإننا لله وإنا إليه راجعون، ألا له الخلق وإليه ترجعون، سبحانه هو الفعال لما يريد، وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا"⁽⁶⁶⁾.

ثالثاً: الإثبات:

والإثبات هو عبارة عن عرض الحجج، ويتضمن ثلاثة عناصر وهي⁽⁶⁷⁾:

الأول: الاقتراح (التصدير): وهو تحديد ملقط من القضية بهدف المجادلة.

الثاني: المحاججة: وهي عرض الأدلة المحتملة.

الثالث: وفي بعض الأحيان، وفي نهاية الإثبات ينقطع الخطاب المتصل عن طريق حوار جد حساس مع الخصم أو الشاهد.

بعد أن عرض ابن عاصم القضية بأسلوب حجاجي، بدأ يقدم نتائجاً، ومن ذلك قوله:

"والواجب علينا أن نجتمع ونألف، ونتفق ولا نختلف، ونعتمد صريح الفقه أخذاً وتركاً، ونتبع صحيح النقل الذي لا يدع ريباً ولا يَبْقَى شكاً، ونسأل من الله - عز وجل - الهداية

المسلمين فهذا يقوي نصّه الججاجي، وخاصة عندما بين ضعف الخصم، فقال:

"هذا وعقده التوحيد، وصلاته التحميد، وسنته الغراء وشريعته البيضاء، ودينه الحنيف القويم، ونبه الرؤوف الرحيم، وكتابه القرآن الحكيم، ومطلوبه بالهداية الصراط المستقيم، فكيف تُعقّد المزية الكبرى، والمنقبة الشهري، لمن عقده التلث، ودينه المليث، ومعبوده الصليب، وتسميته التصلب، وملته المنسوخة، وقضيته المفسوخة، وختانه التغطيس، وغافر ذنبه القسيس، وربّه عيسى المسيح، ونظره لا البين ولا الصحيح، وأنّ ذلك الرب قد ضُرج بالدماء، وسقي الخلّ، عوض الماء، وأنّ اليهود قتلته مصلوباً، وأدركته مظلوماً، وقهرته مغلوباً، وأنّه جَزَع من الموت وخاف، وإلى سوى ذلك بما يناسب هذه الأقاويل السخاف، فكيف يُرجى من هؤلاء الكفرة من الخير متقال الذرة، أو يطمع منهم في جلب المنفعة أو دفع المضرة؟! (76)."

وإذ تبرّر من هذا الاستدلال خاصيتان:

الأولى: سعة ثقافة ابن عاصم، ومعرفته في شتى المجالات والعلوم الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والفكرية.

ولم يقف الأمر عند هذا فحسب، بل كان طرحه للأسئلة يكشف لنا أنّه صاحب فكر ومفكر فلسفي، مثل قوله: "فهل يُستطاع شكر النعمة التي لا يكون إنفاق ما في الأرض جميعاً لها قيمة؟! أو يختلف اثنان بوجه أو بحال في كون هذه النعمة عظيمة؟! أو يتمارى أحد في كون جمع الكلمة في هذا الوطن الغريب مئة كبيرة ومئة كريمة؟! (77)."

الثانية: استمالة قلوب السامعين تجاه قضية وطنهم، ورفع معنوياتهم؛ حتى تنهض همهم لحماية وطنهم فلا تبقى أنفسهم متعاسة، فهم يتميزون بهذه الصفات العظيمة وأجلّها كتابهم القرآن الكريم.

وقد عمد ابن عاصم إلى المقارنة بين المسلمين والنصارى (القشتاليون)، - أو بالأحرى ذكر خصال المسلمين الحسنة وذكر الخصال السيئة لدى النصارى؛ - وذلك لبيان أحقية أهل الأندلس ببلدهم، وإقامة الحجة القوية عليهم، وبهذا يُظهر التفاوت الججاجي لدى الطرفين، كما يظهر ابن عاصم هذا التفاوت من خلال سؤاله التعجبي الإنكاري الذي يحمل دلالات عميقة، وهو: فكيف يُرجى من هؤلاء الكفرة من الخير متقال الذرة، أو يطمع منهم في جلب المنفعة أو دفع المضرة؟!، وعليه فهو عندما قارن بين الطرفين قد أضعف خصمه.

ثم تظهر البراعة الججاجية الفنية لدى ابن عاصم عندما قال: "ومهما كانت الكلمة مؤتلفة، والأهواء لا مفترقة ولا مختلفة" (78).

الأشياء، وخاصة اعتماده على الفكر السياسي، فقال: "وظاهر ظهور الشمس، وثابت بثبوت القواعد الخمس، ومعلوم بالضرورة علم إتيان الغد ومضي الأمس، أنّ الله - عز وجل - لطيف بعباده حسبما شهد بذلك برهان الوجود، وقال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:34]. دليل على ما سوّغ من الكرم والجد" (73).

ونلاحظ مما سبق اعتماده في الججاج على بعض الجمل التي لا تحتل التأويل وهي: وظاهر ظهور الشمس، ومعلوم بالضرورة، والآية الكريمة.

ويُستنتج أيضاً أنّه ركز على قوتين، وهما:

الأولى: القوة الدينية.

الثانية: القوة السياسية.

المحور الثاني: اعتماده مرجعية العقل (مخزونه اللغوي)

من خلال توظيفها في خطبته.

ونجد ابن عاصم يوظف الفكر، إذ يقول: "ومن استقرأ التواريخ المنصوصة، وأخبار الملوك المقصوصة، علم أنّ النصرى - دمرهم الله - لم يُدركوا في المسلمين ثاراً، ولم يرحضوا عن أنفسهم عاراً، ولم يحرقوا من الجزيرة منازل ودياراً، ولم يستولوا عليها بلاداً جامعة وأمصاراً، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف واجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف، وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة" (74).

وكذلك اعتمد ابن عاصم أثر اتباع الفقه المذهبي في الحفاظ على الوطن. فهو هنا يعتمد على ركيزة دينية. وبناء على ذلك فإنّ اعتماد الكاتب على أكثر من مرجعية لدعم نصّه الججاجي، يعدّ أقوى لديه. فالججاج الذي يعتمد على الأدلة والبراهين يكون قوياً. وكذلك يبرز لنا مدى سعة ثقافة الكاتب وكيفية استخدامها - الأدلة والبراهين - في تقوية النصّ الججاجي.

ومن الوسائل التي اتبعتها ابن عاصم في تقوية الججاج:

1- الاستطراد:

ويستطرد ابن عاصم في بيان حججه في هذه الفتنة المؤلمة على قلوب الأندلسيين عامة وأهل غرناطة خاصة، فبين لنا أنّ هذه الفتنة أخذت مدة من الزمن، فقال:

"وتطاولت الأيام بين مهادنة ومقاطعة، ومقاربة ومقارعة، ومنازلة ومنازعة، وموافقة وممانعة، ومحاربة وموادعة، ولا أمل للطاغية إلا في التمرس بالإسلام والمسلمين، وإعمال الحيلة على المؤمنين، وإضمار المكيدة للموحدين، واستبطان الخديعة للمجاهدين..." (75).

وقد أظهر قوة المسلمين وبيان ضعف النصارى (القشتاليون) الخصم، فاعتمد ابن عاصم على إظهار براعة

فجمع الله - عز وجل - بها القلوب، وهى الغرض المطلوب...⁽⁸³⁾.

ومن الأمثلة التي جمعت بين الترغيب والترهيب معاً:

قوله: "بيده الرفع والخفض، والبسط والقبض، والرشد والعَيّ، والنشر والطّي، والمنح والمنع، والضّرّ والنفع، والبُطء والعجل، والرزق والأجل، والمسرّة والمساءة، والإحسان والإساءة...⁽⁸⁴⁾.

4- الترهيب في خطبة ابن عاصم:

ومن الأمثلة على الترهيب: "وبينما الفرقة حاصلة، والقطيعة فاصلة، والمضرة واصله، والحب في انبتات، والوطن في بتات، والخلاف يمنع رعيّ مُمات، والقلوب شتى من قوم أشنات، والطاغية يتمطى لِحْضَمِ الوطن وقضمه، ويلحظه لحظ المتلهّف على هضمه، والأخذ بكضمه، ويتوقّع الحسرة إنّ تأدّن الله بجمع شمله ونظمه، على رغم الشيطان ورغمه"⁽⁸⁵⁾.

وكذلك قوله: "... فلا شك أنّ المؤاخدة كانت بسبب تلك الذنوب، وأنّ الجناية هي التي أوجبت ما طرّقنا من الخطوب، فأزف العذاب، وعاد من أعدى الأعداء الأحباب، فقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة:166]. وراعت الضراء، وأرهبت البأساء، وسُلبت أثواب الديباج المستباجة اللباس، وعصبت مثمونات الأثمان المغصوبة للناس، وغشي الخوف غير الخائفين من الله - عز وجل - وسُلب الأمن للأمنيين من مكر الله - عز وجل - وكادت العقوبة العظيمة أن تلحق..."⁽⁸⁶⁾.

السلطة وأثرها في الإقناع الحجاجي في خطبة ابن عاصم: فتمة عدّة أمور تتعلق بأثر السلطة وجوانبها وسيطرتها على الخطاب الإقناعي الحجاجي، وهي:

هل تعد خطبة ابن عاصم بحد ذاتها سلطة أم تحكمها سلطة أخرى؟

وذلك لأنّ السلّطة تلعب دوراً رئيساً في إنتاج الخطاب وتأويله، وكذلك تمنحه قوته الإنجازية، ولذلك فهناك من يرى أنّ الخطاب نفسه سلطة، وبذلك يعدّ خطاب ابن عاصم سلطة بحدّ ذاته على هذا التعبير. ويتجلّى دورها بوصفها محدداً رئيساً في ترجيح استراتيجيات معينة دون استراتيجيات أخرى⁽⁸⁷⁾.

وهل لابن عاصم نفسه باعتباره مرسل سلطة أيضاً على خطبته (نصّه)؟

ما من شك أنّ الكاتب القوي هو الذي يحور نصّه بالطريقة التي يريدها، وبذلك يطوّع ألفاظه وعباراته كما يشاء. فحينئذٍ تخضع اللغة لسلطة المرسل، بوصفه الفاعل الرئيس لخطابه. واستطاع على إذعان قواعد اللغة وقيودها، وخرقها والتلاعب بها، فهذا يعدّ كفاءة تواصلية. وعندما يستعمل المرسل الكفاءة

فهو رسم أهل الأندلس في أحسن صورة أمام خصمهم، بالرغم من تفرق كلمتهم، إلا أنه أخفى هذا أمام الخصم.

2- الاستمالة:

وقد اعتمد ابن عاصم على استمالة السامعين من خلال الصور البيانية البلاغية والأساليب الجمالية في التأثير على المتلقي (السامع) في تقبل خطبته. وقد ظهرت الاستمالة الحجاجية عندما أظهر ملك قشتالة المحنة والعطف لأهل الأندلس، إلا أنّ الهدف من وراء ذلك هو الحيلة عليهم.

فقال ابن عاصم: "... وهو يظهر أنّه ساعٍ للوطن في العاقبة الحسنى، وأنّه مُطَوّرٌ لأهله على المقصد الأسنى، وأنّه مهتمٌّ بمراعاة أمورهم، وناظرٌ نظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم، وهو يُسرّ حسناً في ارتغائه الحيلة في التماس هُلك الوطن وابتغائه"⁽⁷⁹⁾.

وقد بيّن قدرة ملك قشتالة في استمالة واستدراج الناس، ومن ثمّ الاستيلاء على قلوبهم أولاً، ثم على وطنهم ثانياً، فهذا سمّ قاتلٌ.

إلا أنّ هذا لم يستسغه ابن عاصم، فنراه يستخدم النبرة الخطابية العالية في تنبيه أهل الأندلس، إذ يقول: "فتباً لعقول تقبل مثل هذا المحال، وتصدق هذا الكذب البحت بوجه أو بحال..."⁽⁸⁰⁾.

ونجد ابن عاصم - هنا - لم يقل: فتباً لهؤلاء الأشخاص، بل جاء مخاطباً العقل، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه قبل قليل حينما قلنا إنّ ملك قشتالة يريد الاستيلاء على العقل ثم على الوطن.

3- الترغيب في خطبة ابن عاصم:

ومن الأمثلة على الترغيب قوله: "وإذا بالقلوب قد انتلفت، والمنافرة قد اجتمعت بعدما اختلفت، والأفئدة بالبيئة إلى الألفة قد اقتربت إلى الله - عز وجل - وازدلفت، والمتضرعة إلى الله قد انتهت في إصلاح الحالة التي سلفت"⁽⁸¹⁾.

وكذلك التركيز على أهمية النعمة بدافع الترغيب، فقال: "وإنّ من أعظم نعمه التي نعجز عن أداء شكرها، وإن طالت آماذ الأعمار، ويتناغى البلغاء في الثناء عليهم في إسدائها، فلا يبلغون من ذلك معشار المعشار، وتتجارى الألسنة والأقلام في تقرير وصفها، فلا تصل من ذلك إلى حظ يُقنع، ولا إلى مقدار"⁽⁸²⁾.

وكذلك حديثه أيضاً عن النعمة، فقال: "وإنما النعمة التي لا يقدر قدرها، ولا يُوفى شكرها، ولا يُقام لها من حمد الله بكفاء، ولا يطمع من القيام بحقها استيفاء، هي التي تكفلت بتسنيها تكييفات الأقدار، وانجلت عن تأنيها تدبيرات الفاعل المختار،

التواصلية ليؤثر في سلوك الآخرين، فإننا نتحدث عن تأثيرات تتم عن دهاء. ويحقق المرسل هذه التأثيرات عبر التلاعب واستغلال القواعد والاستثناءات والاختيار من المواد المخزنة⁽⁸⁸⁾.

والرّاجح عندي في هذه المسألة أنّ ابن عاصم قد أبدع في رسم خطوط سلطته في خطبته، فتفنن فيها وغرق فيها إلى الخيال، فنجد هذا الإبداع عند نسجه لألفاظه واستخدامه للمحسنات البديعية بشكل يبهر عقل المتلقي في حُسن هذا التفنن من غير ملل.

وصرح ابن عاصم في خطبته عن أثر الاحتكام للقوانين، فقال: "... إلى أن استقلت هذه الدولة النصرية على قواعدها الراسخة، واستقرت بأحلامها الزاجحة وأعلامها الشامخة، واستمرت قوانين من السياسة كانت ضابطة نشر للمملكة من الافتراق..."⁽⁸⁹⁾.

ويبدو لي أنّ هذه الخطبة محكمة بقوتين، وهما: قوة شدّ نحو آليات الحجاج في الخطبة، وقوة شدّ أخرى نحو قوانين السلطة. فإذا بابت عاصم يجمع بينهما في خطبته. واعتمد - كما تبين - ابن عاصم على السلطة في فتح المجال لخطبته، وبيان قوة هذه السلطة في سوغ النصّ الحجاجي، ومن ذلك قوله:

"... فاتحاد السلطان في مثل هذه الأوطان، واجبٌ قياساً وسماً، وتعدد الخلافة في مثل هذه المسافة غير جائز إجمالاً"⁽⁹⁰⁾.

أثر حديث ابن عاصم عن السياسة والأخلاق في الخطبة الحجاجية:

إنّ استناد ابن عاصم على قضية الجمع بين السياسة والأخلاق، يتحقق من ذلك النصّ في الأندلس، فإذا انعدمت الأخلاق لدى المسيطرين على الدولة والحكم فسوف تنهار الدولة من كثرة الوشايين والمؤيدين إلى ضياع الوطن.

وكذلك قارن بأسلوب حجاجي بينه - كصفته وزير - في همّه في المحافظة على الوطن، وبين الحكام والوزراء الذين ليست قلوبهم على الوطن. وهذا حجاج يعتمد على المنطق العقلي في سوغ الخطبة في قالب حجاجي.

الرّوابط اللغوية الحجاجية في النصّ الحجاجي⁽⁹¹⁾: فيمكن تطبيق الرّوابط اللغوية الحجاجية من خلال خطبة ابن عاصم كما يلي:

- 1- استخدام لغة تناسب المتلقي يستطيع فهمها، نحو: وظاهر ظهور الشمس، وثابت بثبوت القواعد الخمس.
- 2- التكرار ويعدّ أكثر الأدوات البلاغية استخداماً في الخطاب العربي، ومنه:

أ- الترادف: اجتماع - اتفاق - إجماع.

ب- الكلمات العامة، مثل: الوطن، الجهاد، النصر، الفتح، الكرم، الجود.

3- استخدام المؤكّدات الحرفية: مثل: أدوات التأكيد الحرفية: إنّ، لقد، واللفظية: كلّ نفس، أو استخدام المؤكّدات التركيبية، مثل: دون شك.

ومن الأمثلة على ذلك:

قوله: إنّ الله على شيء قدير.

وإنّه بعباده لخبير بصير.

وإنّ في أحوال الوقت الراهنة.

وإذا بالنعمة قد كفرت، والذمة قد خُفرت.

وإذا بالقلوب قد ائتلفت.

تعلمون حقّاً.

4- استخدام المحسنات والبيان والتصويرية للتأثير على المتلقي وتشخيص الأحداث وتوضيح المعاني.

الطباق: الإحسان - الإساءة، الرّفْع - الخفض.

5- تنسيق أجزاء النصّ وتنظيمه.

دور الاستفهام في تقوية النصّ الحجاجي:

لم يركز ابن عاصم على الاستفهام كثيراً في تقوية حججه، وعلى الرغم من ذلك ورد في خطبته، وكان وروده في ستة مواضع فقط في كلّ الخطبة، وهي:

أول ثلاثة مواضع ضمن فقرة واحدة وهي:

قال: "فهل يُستطاع شكر النعمة التي لا يكون إنفاق ما في الأرض جميعاً لها قيمة؟ أو يختلف اثنان بوجه أو بحال في كون هذه النعمة عظيمة؟ أو يتمارى أحد في كون جمع الكلمة في هذا الوطن الغريب منّة كبيرة ومنحة كريمة؟"⁽⁹²⁾.

الموضع الأول: فهل يُستطاع شكر النعمة التي لا يكون إنفاق ما في الأرض جميعاً لها قيمة؟

فهنا يتساءل ابن عاصم سؤال المتعجب.

الموضع الثاني: أو يختلف اثنان بوجه أو بحال في كون هذه النعمة عظيمة؟

الموضع الثالث: أو يتمارى أحد في كون جمع الكلمة في هذا الوطن الغريب منّة كبيرة ومنحة كريمة؟

وهنا اقترن سؤاله بالحديث عن الوطن الذي جعله غريباً، مما حصل له، فلم يجد العون لخلاصه من الضياع.

والغاية من الاستفهام هي حتّ عقول الناس، واستنهاض همهم تجاه وطنهم بالدفاع عنه؛ لأنّ ابن عاصم عندما طرح الأسئلة كان يدعو الناس للتأمل والتفكير، ولأنّ السؤال يدعو إلى النقاش ومن ثمّ يتولد الحجاج.

الموضع الرابع: فكيف يُرجى من هؤلاء الكفرة من الخير

مثقال الذرة، أو يُطمع منهم في جلب المنفعة أو دفع المضرة؟⁽⁹³⁾.

فجاء الاستفهام هنا استكرازا، أي: لا فائدة من هؤلاء الكفرة؛ لأنهم يختلفون معنا كل الاختلاف.

الموضع الخامس: فمن المنازع فيما حكم الله - عز وجل - به وقضى؟⁽⁹⁴⁾.

يتساءل تساؤل المتشكك: فمن المنازع.

الموضع السادس: ومن السّاخط من المحلّ الذي يُطلب فيه من الله - عز وجل - الرضا؟⁽⁹⁵⁾.

خاتمة

لعل ارتكاز الكاتب على الججاج يعد من منظوره - الكاتب ابن عاصم - باعاً مهماً في بث أفكاره للمتلقى، وبذلك تلقى القبول منه من خلال اقتناعه بهذه الأفكار والآراء. ولا سيما النصّ الخطابي القائم على عناصر الإقناع والتأثير بشكل متقن، ويعيد عن الهنات فحينئذ يثبت وجوده.

كما أنّ وظيفة النصّ الججاجي عنده ليست بالدرجة الأولى أن تكون تواصلية، أي: مجرد تبليغ المتلقى بأخبار، بقدر ما هي تتضمن التأثير على المتلقى إيجابياً أو سلبياً (كتطويعه لفكرة ما).

والحقيقة كان ابن عاصم متقناً هادفاً في استخدامه لتقنيات الججاج في خطبته، ولم يأت هذا من فراغ؛ لأنّه لدى الكاتب مجموعة أفكار مهمة تمسّ وطنه، تحتاج إلى كاتب متمكن ذي مهارة لإيصالها إلى المجتمع، كما أنّه رجلٌ سياسيٌّ لا يتأتى له أن يقول خطبته ارتجالاً، بل تحتاج إلى أعمال الفكر في صوغ هذه الأفكار والآراء.

ومن النتائج التي توصل إليها الباحث في هذا البحث:

- 1- أنّ الخطبة قائمة كلّها على اللون الججاجي.
- 2- خلو الخطبة من الإبهام والمغالطة.
- 3- لقد جاء طرح الأفكار والآراء موافقاً لما يقبله العقل،

الهوامش

(1) انظر ترجمته:

المقري، أزهار الرياض، ج1، ص 145 - 186.
والبغدادي، هدية العارفين، ج2، ص 199 - 200.
والمقري، نفع الطيب، ج6، ص 148.

(2) المصدر نفسه، ج6، ص 148.

وكان هذا الطرح مسوغاً بقالب حجاجي.

4- لقد راعى ابن عاصم المتلقي من حيث نوعية خطابه، نحو: توفر المعارف المشتركة بين الطرفين.

5- تتوعّث البراهين عند ابن عاصم، وكانت ضمن نوعين: البراهين الجاهزة، والبراهين غير الجاهزة.

6- لقد برع ابن عاصم في صياغة أسلوب الخطبة، وهذا يعود إلى قدرته اللغوية.

7- اعتمد كثيراً على الإقناع باعتباره وسيلة تأثير على المتلقي.

8- راعى ابن عاصم الأسس المنطقية في الخطبة، فكانت هذه الأسس بسيطة. كما خلت من الخيال أو مناقضة الواقع والحقيقة.

9- لقد كان قصد ابن عاصم من تقديم الحجج المتنوعة، هو التأثير على المتلقي وإقناعه بأنّه يمتلك الكفاءات التي تؤهله في إقناع الناس بخطبته، والاستجابة لمطالبه التي سببها من خلال الخطبة.

10- كان اعتماد ابن عاصم في ترتيب حججه على حسب قوتها، فكان يبدأ بالحجة البسيطة، ثم يأتي بالحجة القوية، ثم الحجة الأقوى، وكذلك بالنسبة لنتائجه.

11- ارتكز ابن عاصم في خطبته كثيراً على المحسنات البديعية، فقد كانت عنده بمثابة الحجج.

12- اعتمد ابن عاصم على الشاهد؛ لأنّه يحمل درجة عالية من التصديق لدى المتلقي، وقد تنوع هذا الشاهد من القرآن الكريم، ومن كلام الرسول - صلى الله عليه وسلم-، وأقوال العلماء، والمثل.

13- ارتكز على الترغيب والترهيب في إثبات حججه.

14- لم تخل الخطبة من الروابط اللغوية الججاجية، بل كانت موجودة في ذهن ابن عاصم عندما سطر لنا هذه الخطبة.

15- اعتمد ابن عاصم المنطق العقلي في صوغ خطبته.

- (3) المقري، أزهار الرياض، ج1، ص 55.
- (4) انظر المقري، نفع الطيب، ج6، ص 148 - 150.
- (5) انظر المقري، أزهار الرياض، ج1، ص 145.
- (6) انظر البغدادي، هدية العارفين، ج2، ص 200.
- (7) ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص 228، مادة (حجج).
- (8) حشاني، مصطلح الججاج بواعثه وتقنياته، ص 270.
- (9) عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 226.

- (10) صولة، الججاج أطره ومنطقاته، ص 350.
- (11) حشاني، مصطلح الججاج بواعثه وتقنياته، ص 269.
- (12) انظر الحباشة، التداولية والججاج، ص 21.
- (13) الغرناطي، جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، ج 2، ص 295.
- (14) انظر صولة، الججاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 12.
- (15) انظر الدريدي، الججاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص 54 - 55.
- (16) انظر المصدر نفسه، ص 17.
- (17) الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص 88.
- (18) المصدر نفسه، ج 1، ص 197.
- (19) علوي، الججاج والاستدلال الججاجي دراسة في البلاغة الجديدة، ص 12.
- (20) حشاني، مصطلح الججاج بواعثه وتقنياته، ص 270.
- (21) عليمات، الججاج في النص الشعري دالية الزاعي النميري نموذجًا، ص 257.
- (22) صولة، الججاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 22.
- (23) الباجي، المنهاج في ترتيب الججاج، ص 8.
- (24) انظر الدريدي، الججاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص 88.
- (25) انظر صولة، الججاج أطره ومنطقاته، ص 301.
- (26) انظر صمود، أهم نظريات الججاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 14 - 17.
- (27) الغرناطي، جنة الرضا، ج 2، ص 291.
- (28) انظر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 458.
- (29) انظر بتصرف المصدر نفسه، ص 465 - 468.
- (30) المصدر نفسه، ج 2، ص 296.
- (31) انظر بتصرف العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 135.
- (32) المصدر نفسه، ج 2، ص 297.
- (33) المصدر نفسه، ج 2، ص 297 - 298.
- (34) الغرناطي، جنة الرضا، ج 2، ص 289.
- (35) انظر صمود، أهم نظريات الججاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 265.
- (36) الغرناطي، جنة الرضا، ج 2، ص 300.
- (37) المصدر نفسه، ج 2، ص 301.
- (38) المصدر نفسه، ج 2، ص 297.
- (39) المصدر نفسه، ص 298.
- (40) المصدر نفسه، ص 301.
- (41) المصدر نفسه، ج 2، ص 297 - 298.
- (42) المصدر نفسه، ج 2، ص 298.
- (43) عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 105.
- (44) انظر هاجر، مصطلحات حجاجية، ص 31.
- (45) الدريدي، الججاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص 89.
- (46) الغرناطي، جنة الرضا، ج 2، ص 292.
- (47) المصدر نفسه، ج 2، ص 293.
- (48) المصدر نفسه، ج 2، ص 301.
- (49) المصدر نفسه، ج 2، ص 299.
- (50) المصدر نفسه، ج 2، ص 304.
- (51) المصدر نفسه، ج 2، ص 306.
- (52) المصدر نفسه، ج 2، ص 305.
- (53) العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 65، وص 68.
- (54) الغرناطي، جنة الرضا، ج 2، ص 289.
- (55) المصدر نفسه، ج 2، ص 289.
- (56) العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 105.
- (57) المصدر نفسه، ص 65.
- (58) الغرناطي، جنة الرضا، ص 302.
- (59) المصدر نفسه، ج 2، ص 302.
- (60) انظر بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ص 73 - 76.
- (61) انظر المصدر نفسه، ص 71.
- (62) هذه الطمأنينة مؤقتة، وبعدها تبدأ الفقرة.
- (63) المصدر نفسه، ج 2، ص 289.
- (64) انظر للاستزادة حول هذا الوصف في نص الخطبة، ج 2، ص 289 وما بعدها عند الغرناطي، جنة الرضا.
- (65) الغرناطي، جنة الرضا، ج 2، ص 291.
- (66) المصدر نفسه، ج 2، ص 291.
- (67) انظر بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ص 76.
- (68) الغرناطي، جنة الرضا، ج 2، ص 302.
- (69) المصدر نفسه، ج 2، ص 305.
- (70) انظر بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ص 74.
- (71) الغرناطي، جنة الرضا، ج 2، ص 306.
- (72) المصدر نفسه، ج 2، ص 306.
- (73) المصدر نفسه، ج 2، ص 295.
- (74) المصدر نفسه، ج 2، ص 296 - 297.
- (75) المصدر نفسه، ج 2، ص 297 - 298.
- (76) المصدر نفسه، ج 2، ص 299.
- (77) المصدر نفسه، ج 2، ص 296.
- (78) المصدر نفسه، ج 2، ص 297.
- (79) المصدر نفسه، ص 298.
- (80) المصدر نفسه، ج 2، ص 298.
- (81) المصدر نفسه، ج 2، ص 293.
- (82) المصدر نفسه، ج 2، ص 295.
- (83) المصدر نفسه، ج 2، ص 300.
- (84) المصدر نفسه، ج 2، ص 292.
- (85) المصدر نفسه، ج 2، ص 293.
- (86) المصدر نفسه، ج 2، ص 304.
- (87) انظر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 220.

- (88) انظر المصدر نفسه، ص 226.
 (89) الغرناطي، جنة الرضا، ج2، ص 297.
 (90) المصدر نفسه، ج2، ص 300.
 (91) انظر عكاشة، لغة الخطاب السياسي، ص 110-112.
 (92) الغرناطي، جنة الرضا، ج2، ص 296.
 (93) المصدر نفسه، ج2، ص 299.
 (94) المصدر نفسه، ج2، ص 308.
 (95) المصدر نفسه، ج2، ص 308.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
 بارت، ر. (1994م) قراءة جديدة للبلاغة القديمة، بدون طبعة، (ترجمة عمر أوكان)، أفريقيا الشرق.
 الباجي، س. (1987م) المنهاج في ترتيب الحجج، ط2، (تحقيق عبد المجيد التركي)، دار الغرب الإسلامي.
 البغداد، إ. (1955م) هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، بدون طبعة، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
 الجاحظ، ع. (بدون تاريخ) البيان والتبيين، بدون طبعة، 4م، (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون)، بيروت: دار الجيل.
 الحباشة، ص. (2008م) التداولية والحجج، بدون طبعة، دمشق: دار صفحات للنشر.
 حشاني، ع. (2013م) مصطلح الحجج بواعثه وتقنياته، مجلة المخبر، الجزائر: العدد التاسع.
 الدريدي، س. (2011م) الحجج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ط2، إريد: دار عالم الكتب الحديث،
 الشهري، ع. (2004م) استراتيجيات الخطاب، ط1، بيروت: دار الكتاب الجديد.
 صمود، ح. (بدون تاريخ) أهم نظريات الحجج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، تونس: جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية.
 صولة، ع. (2001) الحجج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، تونس: جامعة منوبة.
 صولة، ع. (بدون تاريخ) الحجج أطره ومنطلقاته، تونس: جامعة
- الآداب والفنون والعلوم الإنسانية.
 عبد الرحمن، ط. (2000م) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
 عبد الرحمن، ط. (1998م) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
 عكاشة، م. (2005م) لغة الخطاب السياسي دراسة لغوية تطبيقية في ضوء نظرية الاتصال، ط1، مصر: دار النشر للجامعات.
 علوي، ح. (2011م) الحجج والاستدلال الحجج دراسة في البلاغة الجديدة، ط1، عمان، دار ورد.
 عليجات، ي. (2013م) الحجج في النص الشعري دالية الزاعي النميري نموذجاً، مجلة جامعة دمشق، المجلد 29، العدد (2+1).
 العمري، م. (1986م) في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط1، الدار البيضاء: دار الثقافة.
 الغرناطي، م. (1982م) جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، بدون طبعة، (تحقيق صلاح جرار)، عمان: دار البشير.
 المقرئ، أ. أزهار الرياض في أخبار عياض، بدون طبعة وتاريخ، (ضبطه وحققه وعلق عليه مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي)، مطبعة فضالة.
 المقرئ، أ. (1968م) نفع الطيب من غصن الأندلس الطريب، بدون طبعة، (حققه إحسان عباس).
 ابن منظور، م. (بدون تاريخ) لسان العرب، بدون طبعة، بيروت: دار صادر.
 هاجر، م. (2011م) مصطلحات حجاجية، مجلة مقاليد، الجزائر: جوان، العدد الأول.

Argumentation in Ibn Asem's Sermon

*Salah A. Abu-Yahia**

ABSTRACT

This study investigated the ways in which Ibn Asem's used argumentation in his sermon as a means of convincing. It also attempted to explain the emergence of the concept of Argumentation. The adoption of the argumentation procedure rendered the texts of Ibn Asem more convincing to the receiver. In addition, the high acceptability of the texts is due to using evidence from authentic resources such as the holy Qur'an. His argumentation techniques can be set as a theory of argumentation a high stylistic level. He was successful in communicating his ideas logically and progressively based on logic.

Keywords: Arabic Argumentation, Ibn Asem's, Sermon.

* The University of Jordan. Received on 27/12/2015 and Accepted for Publication on 14/8/2016.